١٨ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي اوورد وليم لين

الأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل السادس ـ الحياة المنزلية

جرت العادة أن ينصرف التاجر بعد تناول الفطور مباشرة إلى حانوته أو مخزنه ولا يعود إلى المنزل قبل الأصيل[1] . ولديه هناك الفراغ الكافي للتدخين متى شاء ، وكثيراً ما يدخن حرفاؤه معه ، فيقدم إلى بعضهم شبكة الخاص ، والقهوة يستحضرها من أقرب مقهى . وقد يمضي أغلب يومه في التكلم مع الحرفاء أو مع جيرانه من التجار . والتاجر يقيم صلاته على العموم في دكانه ، ويتناول بعد صلاة الظهر طعاماً خفيفاً مثل طبق من كباب ورغيف من الخبز يحضرها إليه خادم صغير من المنزل أو من السوق يومياً ، أو بعض الخبز مع الجبن أو المخللات ، أو غير ذلك مما يشتريه من الباعة المتجولين . ويدعو التاجر داعماً الحريف إلى مشاركته الطعام ، وقد يلح في الدعوة . ويحتفظ في دكانه بقلة كبيرة يملأها عند الغروب سقاء متجول ، ويعود التاجر إلى منزله مساء للعشاء ، وسرعان ما ينام ...

والعادة أن ينام الرجل هو وزوجه في سرير واحد ، إلا أن أفراد الطبقة الموسرة يتخذون غالباً سريراً منفصلة . ويتكون السرير عند متوسطي الحال مما يأتي : حشية[2] طولها حوالي ست أقدام ، وعرضها ثلاث أقدام أو أربع ، توضع على سرير منخفض من جريد النخيل ، ومخدة ليستريح عليها الرأس ، وملاءة تفرش فوق الحشية والمخدة . وغطاء الصيف خفيف ، ويسمى (حراما) ، أما غطاء الشتاء فثقيل محشو بالقطن ويسمى (لحافا) . وقد توضع الحشية على الأرض إذا لم يوجد سرير ، أو توضع اثنتان معاً واحدة فوق الأخرى . وكثيراً ما يكتنفها مسندان من مساند الديوان ؛ والكلة[1] تعلق فوق السرير بأربعة خيوط تشد إلى مسامير تدق في الحائط . ويندر أن يغير المصري ملابسه عند النوم . وفي الشتاء ينام بملابسه العادية جميعها إلا الجبة والملابس الجوخية . أما في الصيف فينامون عراة أو شبه عراة . وينصب السرير شتاء في غرفة صغيرة تسمى (خزنة) وصيفاً في غرفة واسعة . ويطوى فرش السرير نهاراً ويوضع على جانب ، أو في الخزنة السابق ذكرها . وعند اشتداد الحر ينام أغلب الناس على أسطح المنازل أو في (الفسحة) : وهي غرفة لا سقف لها ؛ ولكن تعرضهم للهواء الطلق أثناء الليل يسبب لهم الرمد وأمراضاً أخرى .

وأكثر أنواع الأسرة شيوعاً ما يصنع من جريد النخل ، وهو يجلب البق الذي يكثر كثرة فاحشة في مصر أثناء الصيف مثل كثرة البراغيث في الشتاء ، وقد سبق ذكر هذه الحشرات والبلايا الأخرى التي يتعرض لها المصريون ليلاً ونهاراً[2] . والفعل أكثر هذه الحشرات إثارة للاشمئزاز ؛ ولكن الذي يغير ملابسه الداخلية كل يومين أو ثلاثة أيام قلما تضايقه هذه الحشرة ، وإن لم يكن تجنبها سهلاً دائماً حتى مع النظافة التامة . وإذا كان القمل يضايق فإن من السهل الخلاص منه ، لأنه لا يلصق بالجلد وإنما يوجد على العموم في الثياب . ومن الممكن أن ينظف المنزل من البراغيث بكثرة النسل والكنس ، وأن يمنع الذباب من الدخول بوضع الشباك على الأبواب والنوافذ ، وإن كانت حلقاتها واسعة ، ولكن من المستحيل أن يطهر المنزل المصري من البق إذا كان أثاثه من الخشب كما هو الحال غالباً

وحياة الخدم الذكور كلها دعة وراحة ما خلا السائس الذي يجب عليه أن يرافق سيده وقت الركوب فيجري أمامه أو بجانبه

---

(١) سأصف الحوانيت وأخبار التجار في فصل الصناعة

(٢) طراحة

(١) «الناموسية» : وهي تصنع من الموصلي أو الكتان أو الكريب وهي عبارة عن مظلة يطول السرير وعرضه

(٢) في مقدمة الكتاب

وقد يقوم بعمله هذا فى أشد الأوقات حراً ولمدة ساعات طويلة دون أن يبدو عليه التعب . ولكل ثرى من أثرياء القاهرة تقريباً بواب يلازم باب المنزل ، وعدة خدم ذكور آخرين . وأغلب هؤلاء مصريون . ويستخدم أيضاً النوبيون فى القاهرة وفى غيرها من مدن مصر . وكثيراً ما يقوم النوبيون بحراسة الأبواب ؛ وهم على العموم أكثر أمانة من الخدم المصريين . وأجرة الخادم تافهة لا تتعدى ريالاً أو ريالين فى الشهر ، إلا أنه يتناول منحاً كثيرة[1] فيعطى السيد كل خادم فى عيد الفطر بعض الملابس الجديدة أو خلعة كاملة من عرى وطربوش وعمامة . وعلى الخادم أن يدبر لنفسه ملابسه السنوية الأخرى ما عدا الحذاء أحياناً . وقد يتناول ، علاوة على ما يعطيه السيد ، بعض النقود من الضيوف أو من التجار الذين يعاملهم السيد وعلى الأخص عند ما يشترى صفقة كبيرة . وينام الخدم بملابس النهار على الحصر ، ويغطون أنفسهم شتاء بدثار[2] أو حرام . وكثيراً ما يرفع الخادم الكلفة مع سيده فيضحك ويمزح معه . وفى بعض الأحوال الأخرى يخضع كل الخضوع ويظهر له كل الاحترام ، ويتقبل كل ما يوقعه عليه من العقوبة البدنية بهدوء الأطفال .

ويراعى السيد الخادم العبد أكثر من الخادم الحر ؛ ويحيا العبد حياة توافق طبيعته الكسولة . ويمكنه إذا كان غير راض عن عمله أن يجبر سيده على بيعه . وأغلب عبيد مصر يلبسون الملابس العسكرية التركية . وهم على العموم أشد الناس تعصباً فى مصر وأكثر تمرداً على إهانة المسيحيين وكل من كان على غير دينهم الذى اعتنقوه دون أن يعرفوا من مبادئه أكثر مما يعرف أطفال العرب الذين لم يمض عليهم فى المدارس أكثر من أسبوع . وسأذكر بعض أخبار الجوارى فى الفصل القادم

ومعرفة أحوال المصريين المحدثين كثيراً ما تجرنا إلى مقارنة عاداتهم المنزلية بعادات الأوربيين فى القرون الوسطى ؛ وما فى هذه المقارنة من مشابهات ، تعتبر أكثر تأثيراً مما فيها من مباينات . هذا بالنسبة للرجال ؛ أما بالنسبة للنساء فالأمر على العكس

الآن وقد أطلت الحديث عن الرجال يجب أن أنتقل إلى الكلام عن الحريم . ولكن يجب أولاً أن أذكر بعض الشىء عن الزواج وحفلاته .

يعتبر المصريون امتناع الرجل عن الزواج بلا مبرر عند بلوغ السن اللائقة مخالفاً للآداب ومسيئاً للسمعة . وقد لقيت أنا نفسى لارتكابى هذه الخطيئة (أقول ذلك حتى لا أذكر ما هو أشد قسوة) ، مضايقات ومكاره كثيرة ، واحتملت عتاباً شديداً أثناء زيارتى الأولين لمصر . فقد بدا لى فى المرة الأولى أن أنتقل من المنزل الذى سكنته بعض شهور فى شارع كبير من شوارع القاهرة إلى منزل آخر فى حى مجاور ، وكتبت عقد الإيجار ودفعت العربون ، ولكن جاءنى وكيل المالك بعد يومين يخبرنى أن سكان الحى وأكثرهم أشراف يعترضون على سكنى بينهم لأننى أعزب ؛ ولكنهم يقبلوننى بكل سرور إذا اقتنيت على الأقل جارية تنفى عنى عار العزوبة . فأجبته إننى لا أنوى الإقامة بمصر فلا أحب أن اتخذ لى زوجة أو جارية قد يضطرنى الرحيل إلى تركها . فأعاد إلىّ العربون . وساعدنى الحظ فى حى آخر فلم يعترض على عزوبتى أحد ، وإنما طلب منى الوعد بعدم السماح لأى شخص بلبس القبعة أن يزورنى فى الحى . ولكن بعد أن استقر بى المقام أخذ شيخ الحى يحاول إقناعى بوجوب الزواج . ولم يقم وزناً لكل ما أبديته من الحجج التى تمنعنى عن الزواج وقال : « تذكر لى أنك تريد ترك مصر بعد سنة أو سنتين . وأن هنا أرملة شابة جميلة تسكن على مقربة منك ، ويسرها أن تصبح زوجتك مع رضاها بأن تطلقها حينما تترك البلد . وفى وسعك طبعاً أن تفعل ذلك إذا لم تعجبك . » وقد استطاعت هذه الشابة مراراً أن تجعلنى أبصر وجهها الجميل أثناء مرورى بالمنزل الذى تسكنه مع أهلها . فقلت لصاحبى إننى رأيت وجهها بطريق الصدفة ، وإنها آخر امرأة أرغب فى الزواج منها فى مثل هذه الظروف لتأكدى من أننى لا أستطيع طلاقها أو فراقها إذا عشت معها . وقد شق علىّ أن أسكت صديق الخدوم . لقد ذكرت فى المقدمة أن الأعزب أو من لا يقتنى جارية يضطر إلى السكنى فى الوكالة إلا إذا كان يعيش مع أهله ، ولكن الفرنج الآن يُعفون من هذا القيد .

وتبلغ المصريات فى سن مبكرة قبل نساء البلدان الباردة . وكثيراً ما يتزوجن فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة . وقد ينضجن قبل السن بشكل يستحق الاعتبار ويتزوجن فى

(١) ويطلب الخادم من السيد الأوربى أجراً مرتفعاً . كما أنه يتناول منه منحاً أوفر عدداً وقيمة . وتلك العطايا إذا منحت بتعقل يكون لها أثر حسن ، ولكنها كثيراً ما تشجع على الكسل والخداع

(٢) أنظر سفر الخروج ٢٢ / ٢٦ ، ٢٧ : (إن ارتهنت ثوب صاحبك فإلى غروب الشمس ترده له . لأنه وحده غطاؤه . هو ثوبه لجلده . فى ماذا ينام ..)

العاشرة[1] . إلا أن هذا الزواج المبكر غير شائع . وقلما تبقين بدون زواج بعد السادسة عشرة . وقد تصبح الفتاة المصرية أماً فى الثالثة عشرة أو قبل ذلك . ونساء مصر على العموم ولودات ، ولكن الأجنبيات اللاتى توطن مصر عقيمات غالباً . ويندر أن يعيش من يولد فى مصر من أولاد الأجانب إلى سن الكهولة ولو كانت الأم مصرية . ولهذا يرجع السبب فى تبنى المماليك المعقين غيرهم من المماليك

ومن الشائع بين العرب فى مصر وغيرها أن يتزوج الرجل من ابنة العم أو الخال . ويستمرون بعد الزواج على التنادى بألقاب القرابة . لأن رابطة الدم لا تنفصم ، ولكن صلة الزوجية عرضة للزوال . ومثل هذا الزواج يدوم على العموم بسبب رابطة القرابة ، وقد تربطهما وحدة البيئة فى طفولتهما ، ولكن قلما يسمح للفتى أن يرى وجه قريبته فى الطبقتين العليا والوسطى ، أو يقابلها أو يحادثها حين تقرب من سن البلوغ إلى أن تصبح زوجته

ويتم زواج الفقراء فى القاهرة بالطريقة الآتية ، إلا إذا كانت أرملة أو مطلقة فيكون الحفل صغيراً . تبدأ أم الراغب فى الزواج أو إحدى قريباته بوصف الفتاة التى تكون عرفتها وذكر أحوالها ، وترشده فى اختياره[2] . وقد يستخدم خاطبة وهى امرأة عملها أن تساعد الرجال فى الزواج . وقد يستخدم أكثر من خاطبة . وتقدم الخاطبة بيانها عن الفتيات مسارة ، فتصف الواحدة أنها كالغزال جمالاً ورشاقة وصغيرة السن ، والأخرى أنها ليست جميلة ولكنها غنية ، وهكذا . والعادة أن تذهب أم الخاطب وبعض قريباته مع خاطبة لزيارة عدة بيوت . وللخاطبة حق الدخول لاحترافها مهنة الزواج ، إذ أن النساء كالرجال يستخدمنها أيضاً . وقد تقوم الخاطبة بمهنة (الدلالة) أيضاً تبيع الحلى والملابس الخ ، فيسهل عليها دخول البيوت تقريباً . وتقدم النساء اللاتى يرافقن الخاطبة ، للبحث عن زوجة لقريبهن ، باعتبارهن زائرات فقط ، وقد لا يلبثن طويلاً إذا لم يصادفن مرادهن ، ويفهم الطرف الآخر طبعاً القصد من الزيارة . ولكن إذا وجدن بين نساء المنزل (ولا بد من رؤيتهن جميع من يصلحن للزواج) فتاة أو امرأة شابة تتحلى بالصفات اللازمة يكشفن عن قصدهن ويستفهمن ، إذا لم يكن طلب الزواج وقتئذ مستقبحاً ، عما تملك الفتاة من أملاك وحلى الخ . وقد تملك الفتاة إذا توفى أبوها منزلاً أو أكثر وحوانيت كثيرة الخ . وتملك كل بنت على وشك الزواج ، فى الطبقتين العليا والوسطى ، مجموعة من الحلى الذهبية والجواهر فى جميع الأحوال تقريباً . وبعد أن يستعلم الزائرات عن هذا وغيره يقدمن تقريرهن إلى الراغب فى الزواج . فإذا رضى بذلك البيان يقدم إلى الخاطبة هدية ويرسلها ثانية إلى عائلة الفتاة لتعرفهن رغباته . وتبالغ الخاطبة على العموم فى حديثها عن صفات الرجل الجذابة وثروته الخ ، فتتحدث مثلاً عن شاب خامل تعلم هى أنه لا يكاد يملك شيئاً ولا يمتاز بشىء بقولها : « يا ابنتى ، إن الشاب الذى يرغب فى الزواج منك صغير السن لطيف العشرة أنيق أمرد ثرى جميل الملبس مغرم باللطائف ؛ إلا أنه لا يستطيع أن يتمتع بهذا الترف وحده فهو يريد أن تكونى شريكته . وسيطيك كل ما يشترى بالمال ؛ وهو لا يخرج كثيراً ؛ وسيمضى وقته كله إلى جانبك يلاطفك ويدللك » .

عبد الله طاهر نور

(١) وكثيراً ما يخطبن قبل ذلك بسنتين أو أكثر

(٢) وكان إرسال إبراهيم رسولا إلى بلده ليبحث عن امرأة لاسحق ابنه (أنظر سفر التكوين ٢٤) يعتبر تماما عين الوسيلة التى قد يتبعها العرب المحدثون فى مثل هذه الظروف لو تيسر الأمر لهم .